فصل من رواية

أرواح رجال، أرواح نساء

محمد الهرادي

إلى الأمين الخمليشي،
في اشتباكاته
مع الكتابة والحياة

أنا رجل عادي. حقيقتي واسمي، دوماً، كانتا في يدي. لكن يبدو أنني صرت مجرّد ذكرى، بلا جسد، فقد وجدت نفسي كائناً وحيداً، لامرئياً، بلا مستقبل، يطبق عليّ خوف دائم، مثل حشرة تعيش حياتها الكاملة في دقيقة راكدة، ملوّنة، لا تنتهي.

منحني الخوف كل شيء. إني أعرف ذلك كما يعرفه نعيمي، و«كل هذا الشيء» جرى على السطح تقريباً، جرى كل شيء على مستوى الجلد ولعب بأعصابي، أعرف ذلك، دبيب على الجلد بقوة دفع لا تقاوم، يتقدم، وأشعر بسرعة روحي، تهرب مني، أفقد الإحساس بأطرافي وجسدي، ومثل كفيفٍ تضلّلني الجدران والأشياء. عبثاً أحاول أن أتشبّث بها، لكنني أسيل وأذوب، أخترق المادة الصلبة، وهي في الواقع فراغ كامل، وزائف.

لم أكن متعجلاً. وعلى جري العادة، لم أستطع نسيان حقيقتي، وأن ما جرى أدركه بشكل آخر، فقد كانوا في حاجة إلى مساعدتي. قال نعيمي: «لا تتأخر...» وضحك. كان مرتاباً من ملامح وجهي المتحفظة، «انتظرني قرب السياج، وكن رجلاً...»، وابتلعت خوفي.

وقرب السياج، بين الشجيرات الفتية، رأيتهم يصيحون، والمردة قبالتهم، حاملين هراوات نظيفة.

وخطوت بمحاذاة السياج، لأرى عن قرب، ولأتخلص من خوفي، وابتعدت حين رأيتهم يضربون، يتجمعون ويتلاحمون. وقرأت الكلمتين المحفورتين على الصخر: باب السفراء.

وفرغت الساحة المقابلة للسور بعد دقائق من وصولهم، وبضعة جرحى مكبلين، ونعيمي فارقته حياته، وصدمة قوية اخترقت جمجمتي، ثم دبيب على الجلد، وروحي تهرب مني، يتملكني شعور أنني خفيف، بلا وزن.

من خلال السياج رأيتهم. اقتربت من جسد نعيمي ولم أشعر أنني تحت عيونهم. كانت أنظارهم متجهة نحو بناية البريد، والفندق، ومبنى التلفزيون، ونحو الساحة الفارغة من المارة، كأن لا شيء يحدث، ولا أحد يمر من هنا.

لكنني لم أفهم شيئاً. كل ما في الأمر أنني رأيت جسد نعيمي مطروحاً، ودون أن أنسى خوفي، اخترقت الحاجز، وزحفت لألمس ثقباً مدمّى في الجمجمة، متوقعاً ردّ فعل أخير من الميت.

أنهض بسرعة وأعيد ما رأيته إلى مكانه. وأسمع خلفي صوتاً مفتوناً. «انتظرني قرب السياج...». كأنني أسمعه للمرة الأولى، ومن خلال السياج رأيتهم. يتقدم المردَة دون ضجة، وعلى عجل، ثم يكشطون الأرض من البقايا.

كنت أسيرَ خوفي. أضيئت المصابيح وكان الضوء الخافت يخدمني. أخفيت نفسي قرب السياج. وضعت شجاعتي أمامي وأنا أتظاهر بالجبن، خوف عدم الرد، وجبن محاولة الاختباء. وكنت أسعد ما أكون، فقد وجدت زاوية أستمر في العيش بها، استمتع بانتصاري أنا. وتأخر الوحي قليلاً لأقرر ما يخدمني.

في الشارع، وجدت نفسي زائداً عن العدد. أمرّ بمحاذاتهم. لست هنا ولم أكن هناك، ولا أحد يستمع إلى الأنين المتردد في أحشائي. وها سعادتي بالنجاة تحولت إلى حديد صلب، يصعب اختراقه.

أقتل غضبي بالسير في الشارع، ولحسن الحظ، هناك شيء

ما يمنع الناس من ملاحظة بقع دم على القميص، ومن علامات الفوضى في وجودي.

أسير بين الناس. تصدمني الأكتاف، تلامسني النهود المتحررة وتتجاهلني النظرات، وعالم هجين من البشر يتكفل بحمايتي: فتيات رشيقات بشعور ملولبة منفوشة، تلميذات ذوات شفاه مخوتمة وقصات شعر إيطالية، أخوات بوجوه قمرية وعجيزات محيّرة، شبان يرتدون الجينز يتحاضنون بالتبويس ويكشفون عن صدورهم ونحورهم لإبراز الكورميط، رجال الشرطة يداعبون شواربهم، رواد المقاهي المتهالكون، نساء بدينات ينفثن الشتائم يدفعن أمامهن طوابير أطفال، مخبرون ومتشردون ومثقفون يتأبطون أعداد الصحف السابقة، خادمات وكلاب، موظفو الدولة والمواطنون الطيبون. أعبر الأرصفة دون أن تكشفني الواجهات والعيون. أختلس النظر إلى بناية البرلمان التي لا شك تصفّر في ردهاتها الريح. أجتاز باليما والخطوط الفرنسية. ألتف حول البنك المركزي. أهرّب نفسي نحو المقبرة التي تحولت إلى رصيف للحافلات.

ما تزال صفارات المردة تطن في أذني، والكل وضع ذيله بين أسنانه وتمت المطاردة. لا يمكن لومهم على ذلك. وبسرعة البديهة، قفزت خلف السياج، تعثّرت، وكان لا بد أن أنجرف مع نعيمي وباقي الرجال، تعثرت، وربما شُجّ رأسي بعد ارتطامه بشيء صلب، أو ربما هي خبطة هراوة. فتحت عيني وأنا أشم رائحة المجاري، وتعرفت على جسد نعيمي من زيه العريض الأزرق، وتدفقت مجموعة أخرى من المردة، ينقرون الأرض بعصيّهم، ها هم، قريباً من السّور، عرقين وشاحبي الوجوه، كأن جرايتهم من الصّوبّا والكاميلا جعلتهم مقرفين، في حجم قرعة وافية، لا يرجو منها دكالة قطرة إدام.

تتدفق السيارات، يتمزق شخيرها في المنعرجات، نفضت ملابسي وتلمست رأسي، لم أعثر على نفسي ولم أفهم ما جرى، وعند ناصية الشارع المؤدي إلى رصيف الحافلات كانت محلات ريش متوهجة، والآنسة المدهشة هناك، غير معقول، تستريح بساق على ساق، كلها، بكامل أسلحتها، مستعدة لفتح الأبواب الموارية. ولكيل المديح للأثاث ذي الماركة المسجلة، وتكفي كلمة مقبولة لخفض السعر، أو نسيان الشقاء في فراش الزوجة، ونسيان ألف سؤال يفجره المردة في الوجه، ووجه نعيمي، والثقب في الجمجمة، وحافة السياج، والوجوه المركونة على نواصي الشوارع، وأتخيل نفسي قربها، نائماً، ورأسي يستريح على صدرها، وأرى وجودها، فتكاد تراني، ولا أراها.

أخطو على رصيف الحديقة، تواجهني أضواء النايت كلوب، تفجيرات موسيقية تشق الأذن. السكارى يشقون طريقهم، وفتوة الدرب يبيعون قطع الحشيش بشروط مريحة ليكتسحوا السوق، استيعاب جيّد لاستراتيجية الألمان، والمحامي الأعرج يستلم الأمانة، امرأة مُجْلَبَبَة. باي باي شيري.

على جدار النايت كلوب سُجّلت كتابة منسحقة (من يذق حبّي لن... اجلس قرب لاكيس لأعرفك) (... باب الحديقة. العلامة: سروال أبيض) مصباح الليل يغمز. لغة اللمس والهمس. يا حبيبي، اشتر لنفسك حزام عفة.

رصيف الحافلات الصاخب، وقوراً كالقاضي المهان أسير، جلجلة الحديد وشخير المحركات، الذهاب والإياب، والوجوه الملهوفة يشوهها السخام، لكن، من يتذكر الآن قصة حَاحَا مع الشاكما، حين توقفت الساتيام في حيّ القبيلة؟

تخطيت الجدار القصير وانتظرت، اشتباكات ومعارك صغيرة على باب الطوبيس، ثمة سيدتان، سروال أحمر وحصاد في الصّاك. شحاذ يدخن المارلبورو، قال: تفضلي يا مدام، مع انحناءة. مدّ يده وقبض على اللاّص.

سيّدتان. إحداهما ثخينة، والبنطلون الأحمر يكيّف الّرجرجة على هواه، والأخرى تشبه قنينة بيرة، قصيرة ومدكوكة، مرفق وذراع. أين أنت يا نعيمي، ترى أتختار الطّارة أم الميزان؟

وفي الحافلة، هذا الكائن المونث والمفضل على ما عداه، جلس بمحاذاة الميزان، سروالها الأحمر من كتّان قابل للتمطيط، وقد يبدو فضفاضاً حول كاحلها إذا وسعت، ومدت رقبتها. أرقب ناس المدينة، يختفون ويحل محلهم آخرون يختفون بدورهم، متاجر ومقاهٍ وعمارات، منازل، آلاف المنازل، من مالك لآخر، والملك لا يموت، ينتقل من وارث لآخر، جيلاً بعد جيل.

يأكلون ويشربون ونحن نتكوم هنا، قال نعيمي، ويبقى وجه ربك، قلت. وقال: هؤلاء الناس يعيشون بالفول، وكان يعني نفسه وعشيرته، نعم، بالفول وحده. وقلت: وحين تموت يغسلونك بماء الفول. قال: والباقي. أنت تعرفه، قلت.

هذه أسوأ ساعاتي. أرى الغول يسرع الخطى إلى فوله قبل أن يقطع اللصوص الطرق على الفول والفوالين أو يضطر لدفع رشوة

لأصحاب الحال ليَدَعوه يمرّ وليدعوه يعمل بسلام صحبة فولته ولو تحجّج أنه فقط كان ينتظر الزّين يخرج من الحمام. أرى الناس تتفول من الأسواق المرتجلة على الأرصفة قبل حلول ليل الفول، والسيارات تمرق مهتاجة، تضرب الأخماس في الأسداس، وعند تقاطع الطرق تنتظر الإشارة المتلكئة، مثل محارب باسل ينتظر إشارة بدء معركة من فول.

ويقف الرجل قبالتها، مباشرة بعد جلوسي، تصعد وتهبط نظرته من رأسها إلى قاع سروالها. عبر جميع المحطات، نطرة عكرة، ترجّها، من حين لآخر، اهتزازات وتوقفات. وتلفتت نحو صاحبتها «هل هو أحمق؟» وأجابت القصيرة: «هذا الوسخ السكران، انطري فمه المتدلي...» وأغلقت ثقب منخرها بظهر ظفرها. وقف قبالتها، منذ البداية، مشدوداً. هبّات الهواء المنبعثة من الطاقة العلوية تعصف بياقته إلى الأعلى، لا يستطيع أن يخطو، ولا أن يعود من حيث أتى، نظرة ذاهلة، لزجة، تنبعث منها شرارات من رغبة، ومن ألم عتيق.

ثم خطا وصار خلفها، وقالت شاكية، وهي تنظر إلى مرآة السائق: أوف... خنقنا الدخان. استجاب السائق. ونفث الطوبيس فسية مهدية هائلة انفتح إثرها الباب. لكن الرجل أسند ذراعه خلف ظهرها وانحنى يكلّمها. وقرع أذنها بصوت عال:

ـ «هل تتزوجينني على سنة الله ورسوله؟»

وانفجر الطوبيس بضحك وحشي. وزمّر السائق ببوقه عدة مرات.

كانوا يتبادلون الشتائم ويسخرون من بعضهم طيلة المسافة. لم يكتشف ملامحي أحد ولم يعترض طريقي جسد آدمي أو باب من فولاذ. نزلت قرب بناية السجن الشامخة وتذكرت أسماء بعض القاطنين هناك. وخطوت باتجاه البيت الذي أعرفه وصار غريباً عني. وتيقنت أن ما يتحرك في هذه الأمكنة ليس جسدي الحي، بل روحي المعلقة الفاقدة للرغبات.

لا أستطيع التركيز. حالة شرود حوّمت برأسي وجعلتني منفلتاً مستريباً بكل ما يحيط بي. وجوه أطفال بعيونها اللامعة تضغط على عيني. تتوارد ملامحها وتتقافز وتنثني غابرة مني دوامة من سوائل كثيفة. أحاول تجريدها من وجودها أو ربما تصحيح حضورها المعتم. لا أدرك كنه هذه الحالة. لكنني أحس مع ذلك بارتياح غريب. وأنا أخطو في اتجاه وجوه الأطفال الراقدين تلمست حافة باب الغرفة. أشعلت المصباح ولم يتغير شيء، وأرجعت الأمور إلى حالتها المعتادة. أنصت لأصوات تنفسهم، وحاولت أن أسترق جزءاً من كلمات مبتورة تتخلّل أحلامهم. كانوا بعيدين جداً ولم يتبق منهم سوى أشلاء وأطراف موزعة على بعضهم بالتساوي. حاولت جمع الأشلاء، ومحو الغبار عنها، إعادة ترتيبها ولمّها إلى بعضها لتتخذ شكل الآدمي المعتاد، في استقلاليته وسيولته الذاتية.

أحسست بالفقدان، وبعجزي عن فعل شيء، وتسلقت أغصان شجرة ضخمة كياني، ارتعدت أحشائي وأفرزت لعاباً مالحاً ملأ فمي وألغى حركة تنفسي، وغطتني شجرة الحزن بأغصانها ومنعت عني رؤية وجودي الحي.

وباندفاعة هروبية وجدت نفسي أخترق جدار الغرفة، ثم ترجّع في مسام جسدي صدى اهتزازات مكتومة، وطنين حاد يخترق الرأس، وأصوات مبهمة آتية من بعيد.

حاولت تلمس الرأس فلم أجد مكانه سوى فراغ. اندفعت نحو الحمام وأنا أغالب حالة قيء.

حاولت أن أقذف من جوفي هذا الكائن الآخر الذي احتل جسدي قرب الحاجز، أمام باب السفراء.

ورفعت وجهي إلى مرآة الحمام لأتعرف على وجهي. لم أجد وجهي. ولم أر أحداً في الحمام يغالب حالة قيء.